

الدرس السابع والأربعون

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله رب العالمين ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ؛ صلى الله وسلم عليه وعلى آله وأصحابه أجمعين . أما بعد:

فيقول الإمام المجدد شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب التميمي رحمه الله تعالى في « كتاب التوحيد الذي هو حق الله على العبيد » :

باب ما جاء في اللُّو

وقول الله تعالى: ﴿ يَقُولُونَ لَوْ كَان لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَا قَتَلْنَا هَاهُنَا ﴾ الآية [آل عمران: ١٥٤] .

وقوله: ﴿ الَّذِينَ قَالُوا لِلْإِخْوَانِهِمْ وَقَعَدُوا لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا ﴾ الآية [آل عمران: ١٦٨] .

قال المصنف الإمام المجدد شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب رحمه الله تعالى في كتابه التوحيد : ((باب ما جاء في اللُّو)) ؛ «اللو» هذه كلمة ترد على ألسنة الناس كثيراً . وتارة يكون ورود هذه الكلمة على ألسنتهم منافياً لما ينبغي أن يكون عليه العبد من إيمانٍ وتوحيدٍ وإقرارٍ أَنَّ الأمور بقدر الله سبحانه وأن ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن . وتارة ترد هذه الكلمة على سبيل التمني في أمورٍ مستقبلية ؛ فإن كان ذلك في خيرٍ فلا بأس بها ، وإن كان في شرٍ فإنها مذمومة .

والمصنف رحمه الله تعالى عقد هذه الترجمة لبيان ذم وخطورة استعمال كلمة «لو» عندما يصاب المرء بمصيبة ويقدر الله سبحانه وتعالى عليه بأمرٍ ما فيبدأ باستعمال هذه الكلمة التي تدل على ضعف الإيمان بالقدر وأن الأمور بمشيئة الله وأن ما أصابه لم يكن ليخطئه وأن ما أخطأه لم يكن ليصيبه ، فإذا ضعف الإيمان بالقدر جاءت مثل هذه الكلمة التي أيضا تفتح لصاحبها باباً من التسخط والجزع والاعتراض على قدر الله سبحانه وتعالى ؛ أي أنها تفتح عليه باباً من أبواب الشيطان وتفتح عليه عمل الشيطان ويكون للشيطان مدخل على الإنسان ، ولهذا قال: ((فإن لو تفتح عمل الشيطان)).

والواجب على العبد في المصيبة أن يعلم أنها من عند الله فيرضى ويسلم ﴿ مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبُ ﴾ [التغابن: ١١] ؛ «هو المسلم تصيبه المصيبة فيعلم أنها من عند الله فيرضى ويسلم» . ثم ماذا تفيد هذه الكلمة إذا أصيب بمصيبة وقال "لو أني فعلت كذا لم يكن كذا، ولو أني ولو أني" إلى آخره ، أي

شيء تفيده هذه الكلمة!! إلا أنها تفتح عليه عمل الشيطان ليس إلا ، ولا تفيده أي فائدة ؛ ولهذا عقد المصنف رحمه الله تعالى هذه الترجمة تحذيرًا من استعمال هذه الكلمة في هذا الباب ، عندما يصاب المرء بمصيبة يقدر عليه بقدر؛ مثلاً سافر وحصل له حادث قال "لو أني ما سافرت ، لو أني ما أطعت فلان ، لو أني كذا" إلى آخره ، أو دخل في تجارة وما ربح قال "لو أني ما سمعت فلان ولو أني كذا" الخ ، كثيرًا ما ترد مثل هذه الكلمة على ألسنة الناس بسبب ضعف الإيمان بالقدر ، فتأتي هذه الكلمة على ألسنتهم فاتحةً بابًا من أبواب الشيطان .

ولهذا الواجب الحذر من ذلك وسيأتي ذكر ما أورده المصنف رحمه الله تعالى من أدلة تدل على خطورة هذه الكلمة، وأن الإتيان بها في مثل هذا المقام ليس من أوصاف أهل الإيمان وإنما من أوصاف المنافقين مثل الآيات التي ساقها كل ذلك من أوصاف أهل النفاق ، من لا إيمان عنده ولا إقرار بقدر الله سبحانه وتعالى يقول مثل هذه الكلمات ، أو يقولها لضعف الإيمان بقدر الله عز وجل ، أما مع الإيمان والثقة بالله وحسن التوكل عليه والإيمان بقدره وقضائه فإن المسلم لا يقول ذلك بل يقول «قَدَّرَ الله وما شاء فعل» ، إذا أصابته مصيبة لا يقول لو أني الخ وإنما يقول «قَدَّرَ الله وما شاء فعل» .

وثمة استعمال آخر لكلمة لو غير هذا الباب الذي سبق بيانه باب القضاء والقدر أو المصيبة ، ثمة استعمال آخر لكلمة «لو» وهو: التمني لأمر مستقبل ؛ فهذا بحسب ما يتمناه الإنسان ، إن كان يتمنى خيرًا ، علمًا ، فضلًا ، طاعةً ، عبادةً إلى غير ذلك من أبواب الخير فهذا ممدوح وليس بمذموم ، وأما إذا كان يتمنى والعياذ بالله شرًا وأمورًا من أبواب الشر فهذا مذموم ، فالأمر في هذا الباب بحسب ما يتمناه .

ومما جمع بين النوعين حديث أبي كبشة الأنماري رضي الله عنه وهو في المسند والسنن أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : ((مَثَلُ أُمَّتِي مَثَلُ أَرْبَعَةٍ : رَجُلٌ آتَاهُ اللَّهُ مَالًا وَعِلْمًا؛ فَهُوَ يَعْمَلُ بِهِ فِي مَالِهِ فَيُنْفِقُهُ فِي حَقِّهِ)) ؛ فيؤدي حق المال ويتقي الله عز وجل في ماله ، يأخذ المال من حله ويصرفه في حله لأن عنده علم يستضيء به ، أما إذا كان ليس عنده مال وليس عنده علم يدخل في متاهات باطلة وأمور كثيرة محرمة .

((وَرَجُلٌ آتَاهُ اللَّهُ عِلْمًا وَلَمْ يُؤْتِهِ مَالًا فَهُوَ يَقُولُ: لَوْ كَانَ لِي -انتهى لكلمة «لو» هنا- مِثْلُ مَا لَهُدَا عَمِلْتُ فِيهِ مِثْلَ الَّذِي يَعْمَلُ ، قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَهُمَا فِي الْأَجْرِ سَوَاءٌ)) سبحانه الله! رجل فقير ما عنده أموال إطلاقًا لا يوجد عنده مال ورأى أحد المحسنين عنده أموال كثيرة بنى مساجد وطبع المصاحف وحفر الآبار وأنفق الأموال في سبيل الله وقال صادقًا من قلبه مع ربه جل وعلا في نفسه : «لو أن لي مثل فلان لفعلت مثله» قال عليه الصلاة والسلام ((هُمَا فِي الْأَجْرِ سَوَاءٌ)) ، هذا فضل الله سبحانه وتعالى والله جل وعلا ذو الفضل العظيم ، ومع ذلك كثير من الفقراء ربما ييخل على نفسه بمثل هذه الأمنية الصالحة الطيبة التي يفوز فيها بمثل هذا الأجر العظيم والثواب الجزيل ، ذاك التاجر يُسأل عن ماله ويحاسب على ماله وهذا بنيت الصالحة ليس عنده مال يُسأل عنه ولكنه فاز بمثل أجر ذلك التاجر الذي ينفق في سبيل الله ، قال ((هُمَا فِي الْأَجْرِ سَوَاءٌ)).

قال : ((وَرَجُلٌ آتَاهُ اللَّهُ مَالًا وَلَمْ يُؤْتِهِ عِلْمًا فَهُوَ يَحْبِطُ فِيهِ يُنْفِقُهُ فِي غَيْرِ حَقِّهِ)) أي ينفق المال في غير حله ويأخذ المال من غير حله ويضيع المال في المحرمات وفيما يسخط الله سبحانه وتعالى .

((وَرَجُلٌ لَمْ يُؤْتِهِ اللَّهُ مَالًا وَلَا عِلْمًا فَهُوَ يَقُولُ: لَوْ كَانَ لِي مَالٌ مِثْلُ هَذَا -انتهبه لكلمة لو هنا في تمنى الشر- عَمِلْتُ فِيهِ مِثْلَ الَّذِي يَعْمَلُ ، قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: فَهُمَا فِي الْوِزْرِ سَوَاءٌ)) ؛ لم يعمل مثله تلك المعاصي وتلك الأمور وتلك المحرمات ما فعلها لكن تمنى وقال "لو أن عندي مثله من المال لفعلت مثله" ، يجد أنه مثله في الوزر يوم القيامة ويعاقب على هذه الأمور التي تحرك في قلبه تحركًا جادًا وصادقًا أنه لو كان عنده من المال لفعل مثله ، إذًا لم يعقه عن أن يفعل مثله إلا عدم وجود المال ، قال ((فَهُمَا فِي الْوِزْرِ سَوَاءٌ)) .

● إذا «لو» يستعملها الإنسان استعمالًا فتكون صحيحة محمودة في تمنى الخير "لو أن لي من المال مثل فلان -أي المنفق في سبيل الله الباذل في سبيل الله- لفعلت مثله" هذا هو وإياه في الأجر سواء ، وقد يستعملها في تمنى الشر والعياذ بالله فيبوء بالإثم والعقوبة .

● وقد تأتى للبيان والتعليم وتقرير الأحكام مثل قول النبي عليه الصلاة والسلام في حجة الوداع: ((لَوْ اسْتَقْبَلْتُ مِنْ أَمْرِي مَا اسْتَدْبَرْتُ لَمْ أَسُقِ الْهَدْيَ وَلَجَعَلْتُهَا عُمْرَةً)) .

الشاهد أن المصنف رحمه الله تعالى عقد هذه الترجمة لبيان ما جاء في اللو وأن استعمال لو عند المصيبة عندما يقدر على العبد أمرًا يقضيه الله عليه من مرضٍ أو فقر أو غير ذلك من المصائب فيأتي بهذه الكلمة عن ضعف إيمان بقضاء الله وقدره ، وفيها أيضًا ما فيها من عدم التسليم للقضاء ، وفيها أيضًا ما فيها من الجزع والتسخط وفتح هذا الباب عليه ، وفيها أيضًا ما فيها من فتح عمل الشيطان على العبد .

أورد رحمه الله تعالى قول الله سبحانه وتعالى: ﴿يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَا قُتِلْنَا هَاهُنَا﴾ ؛ هذه كلمات أسرها بعض المنافقين في أنفسهم في غزوة أحد ، قال الله تعالى قبل هذا الموضع: ﴿يُخَفُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ مَا لَا يُبْدُونَ لَكَ﴾ ما هذا الذي أخفوه في أنفسهم؟ ﴿يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَا قُتِلْنَا هَاهُنَا﴾ فهذه كلمة أخفاها هؤلاء في أنفسهم ، قالها هؤلاء في أنفسهم ، الإنسان قد يقول قولًا في نفسه لا يسمع لكن الله عز وجل فضح المنافقين وهتك سترهم وكشف مخازيهم .

﴿يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَا قُتِلْنَا هَاهُنَا﴾ ، انظر الشاهد هنا ؛ استعمال هؤلاء المنافقين لكلمة «لو» عند المصائب ، عند الأمر الذي قضاه الله سبحانه وتعالى وقدره؛ «لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَا قُتِلْنَا هَاهُنَا» أي أننا ليس لنا أمرٌ في ذلك ، وهذا أيضًا فيه تعريض بموافقتهم للنبي صلى الله عليه وسلم وإتيانهم معه إلى ساحة القتال وإظهار عدم الرضا بذلك ، ﴿يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَا قُتِلْنَا هَاهُنَا﴾

هذه الكلمة جاءت عن نوع اعتراض وعدم التسليم بقضاء الله سبحانه وتعالى وقدره ، لم يقولوا «قَدَّرَ اللهُ وما شاء فعل» وإنما قالوا : «لو كان لنا من الأمر شيء ما قُتِلنا هاهنا» ؛ هب أنك لم تأتِ إلى هذا المكان كما تقول وبقيت في بيتك ولو كان بيتك برجًا مشيدًا مُحكمًا ما الذي ينجّيك من الموت إن كان الله سبحانه وتعالى قضى أن يكون موتك وأنت على فراشك في بيتك ؟

ولهذا جاء السياق في الرد على هؤلاء: ﴿قُلْ لَوْ كُنْتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَى مَضَاجِعِهِمْ﴾ ؛ إذا جاءت المنية وحضر الأجل لا يرد شيء ، إذا ما فائدة قول القائل "لو أني ما ذهبت في هذا الطريق لما حصل لي هذا الحادث ، لما حصلت لي هذه المصيبة، لو أني ما سافرت لو أني.." إلى آخر هذه الكلمات ، فهذه كلمات تنم عن ضعف إيمانٍ بالقدر أو عدم إيمانٍ بالقدر .

إذاً هذه الآية دلت على أن هذا الاستعمال الخاطئ الباطل لكلمة «لو» هو من أوصاف المنافقين ومن أعمال المنافقين ، وكفى ذمًا لهذه الكلمة وبيانًا لقبحها أن الله عز وجل ذكرها في غير موضع من القرآن وصفًا لأهل النفاق ، كما في هذه الآية التي بدأ بها ، والآية التي تليها

وهي قول الله سبحانه : ﴿الَّذِينَ قَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ وَقَعَدُوا لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا﴾ [آل عمران: ١٦٨] ؛ فهؤلاء أيضا من المنافقين وقعدوا لم يشاركوا في القتال ، وفي غزوة أحد نفسها لم يشاركوا ، ولما حصل ما حصل وقُتل من قتل من المسلمين قالوا هذه الكلمة ﴿الَّذِينَ قَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ﴾ ؛ هؤلاء منافقين والمراد بإخوانهم: المسلمين الذين شاركوا في تلك الغزوة ، قيل هذه الأخوة فيما يظهر ، لأن المنافق يُظهر الإسلام فهذه الأخوة بناء على ما يظهره هؤلاء ، وقيل إن المراد بالأخوة أخوة النسب ، أما الأخوة الدينية فليس بين المنافق والمؤمن أخوة دينية ، لكن فيما يُظهره المنافق قد يؤاخيهِ المسلم لما يظهر له من ظاهر أمره ، وسريته تحفى ، لا يعلم البواطن وخفايا النفوس والصدور إلا رب العالمين سبحانه وتعالى .

﴿الَّذِينَ قَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ وَقَعَدُوا لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا﴾ وهذا موضع الشاهد قولهم ﴿لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا﴾ ، فهذا استعمال باطل لكلمة «لو» فيه عدم الإيمان بقضاء الله سبحانه وتعالى وقدره ، وهو من أوصاف المنافقين كما هو الشأن في الآية الأولى ، وكما قدّمت كفى بيانًا وذمًا لقبح هذه الكلمة أن الله ذكرها في أكثر من موضع في أوصاف أهل النفاق .

﴿لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا قُلْ فَادْرُءُوا عَنْ أَنْفُسِكُمُ الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ ؛ إن كنتم صادقين في هذه المقالة امنعوا الموت عن أنفسكم ، إذا جاءكم الموت لا تموتوا امنعوا الموت ، إذا كنتم صادقين فيما تقولون أنكم لو أطاعونا ما قُتلوا إذا جاءكم الموت امنعوه ، لا تموتوا إذا جاء الموت إن كنتم صادقين . وهذا فيه أن من حضرت منيته

وجاء أجله لا يرده شيء ﴿إِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ فَلَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ [يونس: ٤٩] ، ﴿لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ﴾
[الرعد: ٣٨] .

الشاهد أن هاتين الآيتين جاء فيهما استعمال لو هذا الاستعمال الباطل في ذكر أوصاف المنافقين وكفى بذلك ذمًا وتحذيرًا من هذه الكلمة .

قال رحمه الله :

في الصحيح عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: ((احرص على ما ينفعك، واستعن بالله، ولا تعجزن، وإن أصابك شيء فلا تقل: لو أني فعلت كذا لكان كذا وكذا ، ولكن قل: قدر الله وما شاء فعل، فإن «لو» تفتح عمل الشيطان)) .

قال رحمه الله تعالى : ((في الصحيح عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: احرص على ما ينفعك، واستعن بالله)) الحديث اختصر الشيخ رحمه الله تعالى شيئًا من أوله وهو قول النبي عليه الصلاة والسلام : ((الْمُؤْمِنُ الْقَوِيُّ خَيْرٌ وَأَحَبُّ إِلَى اللَّهِ مِنَ الْمُؤْمِنِ الضَّعِيفِ، وَفِي كُلِّ خَيْرٍ ، اِحْرَصْ عَلَى مَا يَنْفَعُكَ، وَاسْتَعِنْ بِاللَّهِ وَلَا تَعْجِزْ)) .

((احرص على ما ينفعك)) في هذه الكلمة توجيه إلى أمرين مهمين ينبغي على المسلم أن يُعنى بهما:

■ الأمر الأول: الحرص ؛ أن يكون حريصًا ، وهذا الحرص إذا وجد في قلب الإنسان تحركت جوارحه تبعًا لما قام في قلبه من حرص ، ولهذا إذا قوي الحرص قوي العمل ، وإذا ضعف ضعف العمل . ففيه دعوة وحث على الحرص .

■ والأمر الثاني: أن يكون الذي تحرص عليه نافعًا لا ضارًا «احرص على ما ينفعك» لأن الحرص نوعان : حرص على ما ينفع ، وحرص على ما يضر ، والواجب على المسلم أن يحذر أشد الحذر من الأمور الضارة ، وأن يصرف حرصه كله إلى الأمور النافعة .

((احرص على ما ينفعك)) : ما ينفعك في دينك ودنياك احرص عليه ، الشيء الذي ينفعك في دينك وينفعك في دنياك وليس فيه سخط الله وغضبه ليس فيه مخالفة لشرع الله احرص عليه .

((واستعين بالله)) أي لا تعتمد على هذا الحرص ولا تعتمد على هذه الأسباب التي بذلتها ، بل في كل أمورك اطلب من الله العون والمدد والتوفيق .

فإذًا قوله «احرص على ما ينفعك» حرص الإنسان على ما ينفعه من أمور الدين وأنواع القربات هذا باب تعبّد وتقرب لله سبحانه وتعالى ، وقوله «واستعين بالله» هذا باب الذي هو طلب العون ، فإذا تحقق من العبد هذين

الأميرين : «اَحْرِصْ عَلَى مَا يَنْفَعُكَ» ، «وَاسْتَعِزْ بِاللَّهِ» اجتمع فيه المقامان : ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ٥] ، ﴿فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾ [هود: ١٢٣] اجتمع فيه هذان المقامان : مقام العبودية في «اَحْرِصْ عَلَى مَا يَنْفَعُكَ» ، ومقام الاستعانة وحسن التوكل على الله سبحانه وتعالى في قوله «وَاسْتَعِزْ بِاللَّهِ» .

وهكذا الواجب على المسلم أن يكون دوماً وأبداً محققاً لهذين الأصلين العظيمين والأساسين المتينين : الحرص على ما ينفعه ، والاستعانة بالله سبحانه وتعالى ؛ الحرص على ما ينفع هذا يعني مجاهدة النفس على العمل وبذل الأسباب والبعد عن التواني والعجز والفتور والكسل والخمول؛ يجاهد نفسه على الأعمال الصالحة ويبتذل الأسباب فيما يقربه إلى الله سبحانه وتعالى ولا يعتمد على هذه الأسباب بل يطلب دوماً وأبداً العون من الله ، ولهذا يأتي كثيراً في الدعوات الماثورة عن نبينا عليه الصلاة والسلام طلب العون ؛ «يَا مُعَاذُ ، وَاللَّهِ إِنِّي لَأُحِبُّكَ ، فَلَا تَدَعْنِي فِي دُبُرِ كُلِّ صَلَاةٍ تَقُولُ: اللَّهُمَّ أَعِني عَلَى ذِكْرِكَ وَشُكْرِكَ وَحُسْنِ عِبَادَتِكَ» ، ومن الدعاء الماثور عنه صلوات الله وسلامه عليه: «اللَّهُمَّ أَعِني وَلَا تُعِنْ عَلَيَّ...» إلى آخر الدعاء ، وكان عليه الصلاة والسلام يقول في خطبة الحاجة «إِنَّ الْحَمْدَ لِلَّهِ نَحْمَدُهُ وَنَسْتَعِينُهُ» أي نطلب منه جل وعلا وحده العون .

فالعبد مطلوب منه بذل الأسباب في الأمور النافعة المفيدة له في أمور دينه ودنياه ، وأن يكون في كل ذلك مستعيناً بالله ؛ انظر هذه اللطيفة في كل مرة تخرج فيها من بيتك ، في كل مرة تخرج فيها من بيتك يشرع لك أن تقول : «بِسْمِ اللَّهِ تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ ، لَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ» ، في كل مرة تخرج من بيتك لمصلحة دينية أو مصلحة دنيوية تستعين بالله وأنت تخرج من البيت تطلب من الله العون «بِسْمِ اللَّهِ تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ ، لَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ» وهذه كلها كلمات استعانة واعتماد على الله سبحانه وتعالى .

قال : ((وَلَا تَعْجِزَنَّ)) أو ((وَلَا تَعْجِزَنَّ)) من العجز وهو التواني والفتور وعدم النهوض والقيام للمصالح ؛ وهذا فيه تحذير من مسلكين يضادان ما قُرِّرَ في هذا الحديث :

- المسلك الأول : مسلك من يعطل الأسباب ولا يقوم بها اعتماداً على التوكل ؛ فهذا غلط وخاطئ ، النبي عليه الصلاة والسلام قال : «اَحْرِصْ عَلَى مَا يَنْفَعُكَ» : اجتهد وجدّ في الأمور النافعة وإياك والعجز إياك والكسل إياك والتواني بل جاهد نفسك على العمل وبذل الأسباب في الأمور النافعة المقربة إلى الله سبحانه وتعالى .
- والمسلك الثاني الذي في هذا السياق إشارة إلى ذمه : مسلك من يقوم بالأسباب معتمداً عليها لا على الله سبحانه وتعالى ، فهذا أيضاً مسلك منحرف ، والحق قوام بين ذلك في الجمع بين الأمرين : بذل الأسباب ، والاعتماد على الله بطلب العون منه وحده جل في علاه .

قال : ((وَإِنْ أَصَابَكَ شَيْءٌ)) أي أصابتك مصيبة؛ قدّر الله عليك بمرض فقر إلى غير ذلك

((وَإِنْ أَصَابَكَ شَيْءٌ فَلَا تَقُلْ لَوْ أَنِّي فَعَلْتُ كَانَ كَذَا وَكَذَا)) لا تفتح على نفسك هذا الباب باب استعمال هذه الكلمة مثل لو ، فإنك إن أتيت بهذه الكلمة في هذا الموضع فتحت على نفسك باباً من أبواب الشيطان وعمل الشيطان .

((فَلَا تَقُلْ)) إحذر إياك ((فَلَا تَقُلْ لَوْ أَنِّي فَعَلْتُ كَانَ كَذَا وَكَذَا)) مثل أن يقول : لو أني ما سافرت ، لو أني ما خرجت من البيت اليوم في هذا الصباح ، لو أني بقيت في مكاني لو أني .. إلى غير ذلك كثيراً ما يأتي على ألسنة الناس مثل هذه الكلمات عندما يصاب الواحد منهم بمصيبة .

قال : ((فَلَا تَقُلْ لَوْ أَنِّي فَعَلْتُ كَانَ كَذَا وَكَذَا ، وَلَكِنْ قُلْ قَدَّرَ اللَّهُ وَمَا شَاءَ فَعَلَ)) أي سَلِّمْ لأمر الله واعلم أن ما أصابك هو بقدر الله ، كما قال الله تعالى: ﴿ مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ ﴾ [التغابن: ١١] ، قال بعض السلف : «هو المؤمن تصيبه المصيبة فيعلم أنها من عند الله فيرضى ويسلم» .

فالواجب على المسلم إذا أصابته مصيبة أن يؤمن بالقضاء والقدر ، وأن ما أصابه لم يكن ليخطئه ، وأن ما أخطأه لم يكن ليصيبه ، وأن ما شاء الله كان ، لا راد لقضائه ولا راد لحكمه سبحانه وتعالى ، ماضٍ فينا حكمه سبحانه وتعالى لا راد له ، فإذا أصابت العبد مصيبة لا يفتح على نفسه باباً من أبواب الشيطان وعليه أن يقول: «قَدَّرَ اللَّهُ وَمَا شَاءَ فَعَلَ» .

قال : ((فَإِنْ لَوْ تَفَتَّحَ عَمَلُ الشَّيْطَانِ)) وهذا بيان لخطورة هذه الكلمة وخطورة استعمالها في هذا المقام مقام حصول المصيبة ؛ فإن الإنسان إذا قالها فتحت عمل الشيطان من مثلاً الجزع ، التسخط ، الاعتراض على قدر الله سبحانه وتعالى ، عدم التسليم والإيمان بما قضاه الله جل وعلا وقَدَّرَه ، تفتح عمل الشيطان . و«عمل» هنا مفرد مضاف ، والقاعدة عند أهل العلم أن المفرد إذا أضيف يفيد العموم ؛ فهو ليس عمل واحد يقوم به الشيطان وإنما في هذا المقام تفتح عليك أعمال للشيطان كثيرة ومتاهات وانحرافات بعضها ربما يتعلق حتى في باب الاعتقاد ، فالواجب على المسلم أن يتجنب مثل هذه الكلمة وأن يقول «قَدَّرَ اللَّهُ وَمَا شَاءَ فَعَلَ» .

قال رحمه الله تعالى :

فيه مسائل ؛ الأولى: تفسير الآيتين في آل عمران.

وقد تقدم تفسير الآيتين .

الثانية: النهي الصريح عن قول: "لو أني" إذا أصابك شيء.

قال رحمه الله تعالى : «النهي الصريح» لأن النبي صلى الله عليه وسلم في الحديث قال: ((فَلَا تَقُلْ)) هذا نهي صريح . قال : «النهي الصريح عن قول: "لو" إذا أصابك شيء» فالنهي عن قول هذه الكلمة والذي هو يفتح على الإنسان باب الشيطان عند المصيبة ، إذا أصابك شيء احذر أن تقول في هذا الموضع «لو» فإنها تفتح عمل الشيطان ، لكن في باب التمني هذا موضوع آخر ، وإنما الأمر بحسب ما يتمناه مثل ما مر معنا في حديث أبي كبشة الأنماري رضي الله عنه .

الثالثة: تعليل المسألة بأن ذلك يفتح عمل الشيطان.

قال رحمه الله تعالى : «تعليل المسألة» المراد بالمسألة : أي النهي الصريح عن استعمال لو عندما يصاب المرء بمصيبة تعليل ذلك بأنه يفتح عمل الشيطان ، لأن إتيان المرء بهذه الكلمة في هذا المقام يكون باباً من الأبواب التي يدخل منها الشيطان على العبد فيلقي عليه الوسوس ، يلقي عليه الظنون والأوهام ، يدخله في متاهات وربما انحرافات أيضا في باب الاعتقاد ؛ فهي تفتح عمل الشيطان .

الرابعة: الإرشاد إلى الكلام الحسن.

لأن النبي صلى الله عليه وسلم لما نهي عن هذه الكلمة الباطلة في هذا الموضع أرشد إلى الكلام الحسن قال عليه الصلاة والسلام : «وَلَكِنْ قُلْ قَدَّرَ اللَّهُ وَمَا شَاءَ فَعَلَ» ، وضبطت أيضا «قَدَّرَ اللَّهُ وَمَا شَاءَ فَعَلَ» ، ففي مثل هذا الموضع قُلْ هذه الكلمة المباركة التي تحرك في قلبك طاعة الرحمن ، هناك تلك الكلمة تحرك وتفتح عمل الشيطان ، وهذه الكلمة إذا قلتها «قَدَّرَ اللَّهُ وَمَا شَاءَ فَعَلَ» حركت فيك طاعة الرحمن وحسن التوكل عليه والإيمان بقضائه وقدره والفوز أيضا بثواب وحسن العاقبة لمن كان مسلماً لقضاء الله تبارك وتعالى وقدره . وهذا أيضا يستفاد منه أنه عندما يُنهى عن أمر منكر أو مخالفة أو كلمات فيها شيء من الخطأ يبين في الوقت نفسه القول الصحيح والكلام السليم الذي يقال في هذا الموضع .

الخامسة: الأمر بالحرص على ما ينفع مع الاستعانة بالله.

أي أن الواجب على المسلم أن يجمع بين هذين الأمرين :

الأمر الأول: هو حرصه على ما ينفعه ؛ وهذا هو بذل الأسباب في الأمور النافعة ومجاهدة النفس على القيام بها.
والأمر الثاني: الاستعانة بالله ؛ أي أن يطلب العون والمدد والتوفيق من الله سبحانه وتعالى .

وبالجمع بين هذين الأمرين الحرص على ما ينفع مع الاستعانة بالله؛ الجمع بينهما فيه سلامة بين مسلكين خطيرين سبق التنبيه عليهما : مسلك من يُعْمِل الأسباب ويهمل التوكل ، والمسلك الآخر المضاد له من يُعْمِل التوكل ويهمل الأسباب .

السادسة: النهي عن ضد ذلك وهو العجز.

النهي عن ضد ذلك أي ضد الحرص عما ينفع وهو العجز ، ولهذا قال عليه الصلاة والسلام: ((ولا تعجزن)) أي ابتعد عن العجز والتواني والكسل فإنه لا يأتي بخير ، وفي الدعاء المأثور عن نبينا صلوات الله وسلامه عليه «اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنَ الْعَجْزِ وَالْكَسَلِ» ، وكلٌّ من العجز والكسل فيه تركٌ للحرص على ما ينفع ؛ فإذا كان الترك للشيء عن عدم قدرة عليه فهو عجز ، وإن كان تركًا له عن قدرة عليه فهو كسل ، وهذا في الجمع بينهما لكن إذا أُفرد كل منهما تناول معنى الآخر .

قال رحمه الله تعالى :

باب النهي عن سب الرياح

عن أبي بن كعب رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: ((لا تسبوا الرياح، فإذا رأيتم ما تكرهون فقولوا: اللهم إنا نسألك من خير هذه الرياح وخير ما فيها وخير ما أمرت به ، ونعوذ بك من شر هذه الرياح وشر ما فيها وشر ما أمرت به)) صححه الترمذي.

قال رحمه الله تعالى : ((باب النهي عن سب الرياح)) ، والرياح آية من آيات الله سبحانه وتعالى الدالة على كمال عظمتهم وكمال اقتداره ، وهي مسخرة بتسخير الله جل وعلا ليس لها من أمر تصرفها وتحركها شيء ، وإنما تحركها إنما هو بأمر الله فهي مأمورة ، الرياح مأمورة مسخرة سيرها إنما هو بتسخير الله جل وعلا .
ولما كان هذا شأن الرياح كان سبُّها سبًّا لمسخرها ، لأنها هي لا تملك من أمرها شيء ، مثل ما تقدم معنا في باب النهي عن سب الدهر قال : ((لا تسبوا الدهر فإن الله هو الدهر)) لأن الدهر مقلَّب وتقلبه بأمر الله سبحانه وتعالى ، فسب المقلَّب سبٌّ لمقلبه ، والدهر لا يملك من تقلبه شيء وإنما تقلبه كله بأمر الله سبحانه وتعالى ، فسبه سبٌّ لمقلِّبه ومسخره بحانه وتعالى ولهذا قال في الحديث: ((لا تسبوا الدهر فإن الله هو الدهر يقلب الليل والنهار)) ؛ هذا معنى «إن الله هو الدهر يقلب الليل والنهار» أي أن تقلب الدهر هو الدهر يقلب الليل والنهار إنما هو بتسخير الله سبحانه وتعالى ؛ فسب الدهر سبٌّ لله سبحانه وتعالى ، لأن الدهر لا يملك من أمره شيء ، ومثل ذلك سب الرياح ، فالرياح ما تملك من أمرها شيء ، وتحركها إنما هو بتسخير المدبّر لأمرها سبحانه وتعالى ، ولهذا جاء في

سنن أبي داود وغيره عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : ((لَا تَلْعَنَ الرِّيحَ فَإِنَّهَا مَأْمُورَةٌ)) ، مأمورة : أي الله أمرها بذلك هي لا تملك شيئاً ، فالله عز وجل يحرك الريح فتتحرك بأمره يدبرها سبحانه وتعالى كيف يشاء ، هي لا تملك شيئاً فسبها سبٌ لمسخرها ومدبرها ، ولهذا جاء النهي عن سب الريح . ولما كان سب الريح بهذا الوصف عقد المصنف رحمه الله تعالى هذه الترجمة في كتاب التوحيد لبيان ما في ذلك من المنافاة .

ومن يسب الريح أو تأتي على لسانه سب الريح ، عندما تشتد الرياح فيؤذيه مثلاً قوتها أو يؤذيه مثلاً شدة حرها أو يؤذيه مثلاً إتلافها لأشياء من ممتلكاته ومصالحه ومنافعه فيسب الريح في الغالب لا يقع في نفسه وهو يسبها أنه يسب الله ، وإلا لو كان يعي هذا المعنى ويقول معقداً هذا المعنى فهذا كفر أكبر والعياذ بالله ناقل من ملة الإسلام ، لكنه عندما ينزعج من الريح ويحصل له نوع من الأذى فيسبها وهو غافل عن هذا المعنى ، ولهذا جاءت الشريعة بإصلاح ألفاظ الناس وإصلاح كلامهم وإبعادهم عن الألفاظ التي تفضي بهم أو تتضمن أشياء باطلة ومحرمة لا يكون القائل قد قصدّها ، وكما ذكرت غير مرة أن الشريعة كما جاءت بإصلاح القلوب بالعقائد الصحيحة والإيمان القويم أيضاً جاءت بإصلاح الألسن وصيانتها من كل ما يصادم العقيدة أو يفضي بصاحبه إلى ما فيه مصادمة للعقيدة .

أورد رحمه الله تعالى عن أبي بن كعب رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: ((لا تسبوا الريح)) أي لا تلعنوها ، لا تشتموها .

((إذا رأيتم ما تكرهون)) أي بسبب هبوب الريح أو شدة هبوب الريح إذا رأيتم ما تكرهون مثلاً إذاكم حرها أو مثلاً حصل لبعض ممتلكاتكم أضرار عند هبوبها أو غير ذلك من الأمور ، تكون ريح باردة ، تكون ريح قوية شديدة ، تكون ريح حارة .

((إذا رأيتم ما تكرهون فقولوا: اللهم إنا نسألك من خير هذه الريح وخير ما فيها وخير ما أمرت به، ونعوذ بك من شر هذه الريح وشر ما فيها وشر ما أمرت به)) ؛ عند هبوب الريح يستحضر العبد المؤمن أن هذه الريح مسخرة بتسخير الله سبحانه وتعالى وهو جل في علاه الأمر لها. قال في الحديث: ((خير ما أمرت به)) ثم قال ((شر ما أمرت به)) فهي مأمورة إما بخير أو بشر ، مأمورة إما بنفع أو بضر ، والأمر بيد الله سبحانه وتعالى ؛ فيستحضر العبد أولاً هذا الإيمان أن هذه مسخرة مدبرة بأمر الله مأمورة ، يستحضر هذا الإيمان ثم يلجأ إلى من أمرها ؛ الله أكبر !! انظر أثر الإيمان والاعتقاد الصحيح في سلامة منطق الإنسان وسلامة لسانه .

فإذاً عندما تهب الريح ويشد هبوبها أول ما ينبغي على الإنسان أن يستحضر أنها مأمورة ، هذا الهبوب وهذه القوة وهذه الشدة بأمر الله لها ، الله جل وعلا هو الذي أمرها ، بعد ذلك يلجأ إلى الله ؛ «اللهم» يسأل الله من خيرها وخير ما فيها وخير ما أمرت به ، ويستعين بالله عز وجل من شرها وشر ما فيها وشر ما أمرت به ، يفوض أمره إلى الله سبحانه وتعالى في طلب الخير وفي أيضاً الوقاية من الشر ، والأمر كله بيد الله سبحانه وتعالى .

قال رحمه الله تعالى :

فيه مسائل ؛ الأولى: النهي عن سب الريح.

لأن النبي صلى الله عليه وسلم قال : ((لا تسبوا الريح)) ، وأيضاً صح عنه أنه قال ((لا تلعنوا الريح)) ؛ فسب الريح حرام لا يجوز ، نهى النبي صلى الله عليه وسلم عن ذلك .

الثانية: الإرشاد إلى الكلام النافع إذا رأى الإنسان ما يكره.

وهذا أيضاً فيه ما تقدم ؛ عندما ينهى الإنسان عن لفظ خاطئ يُذكر له البديل النافع . فقال ((لا تسبوا الريح)) وقال ((فإذا رأيتم ما تكرهون قولوا)) ووجه عليه الصلاة والسلام إلى الكلام النافع . والكلام النافع في هذا المقام أن تدعو الله وتلتجئ إليه أن يعطيك من خيرها وأن يكفيك سبحانه وتعالى شرها .

الثالثة: الإرشاد إلى أنها مأمورة.

هذا أخذه رحمه الله تعالى من قوله في موضعين في الحديث: ((خير ما أمرت به)) ، و ((شر ما أمرت به)) ؛ فهي مأمورة ، وجاء في حديث آخر أشرت إليه في سنن أبي داود عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: ((لا تلعنوا الريح فإنها مأمورة)) ومعنى مأمورة: أي الله عز وجل هو الذي أمرها ، لم تتحرك هي بنفسها وإنما الله عز وجل هو الذي أمرها . ولما كانت بهذه الصفة -مأمورة لا تملك من الأمر شيء- فإن سبها سبٌ لآمرها .

الرابعة: أنها قد تؤمر بخير، وقد تؤمر بشر.

أنها أي الريح قد تؤمر بخير وقد تؤمر بشر ؛ «قد تؤمر بخير» أخذاً من قوله عليه الصلاة والسلام ((وخير ما أمرت به)) ، «وقد تؤمر بشر» أخذاً من قوله عليه الصلاة والسلام ((وشر ما أمرت به)) . إذاً هذه الريح عندما تهب ويشد هبوبها قد تكون مأمورة بخير وقد تكون مأمورة بشر ؛ فعليك يا عبد الله أن تلجأ إلى الله سبحانه وتعالى سائلاً إياه جل في علاه أن يعطيك من خيرها وخير ما أمرت به ، وأن يصرف عنك شرها وشر ما أمرت به .

والله تعالى أعلم وصلى الله وسلم على عبده ورسوله نبينا محمد وآله وصحبه أجمعين .